لا تفرقة على أساس اللون

شمار: لقد التقيت بأناس يعدون بيضاً في أمريكا، بل وتحدثت إليهم حتى تناولت طعامي معهم. ولكن موقف الرجل الأبيض كان قد تلاشى من عقولهم، بسبب هذا الدين (الإسلام).

(مالكولم إكس/ مالك الشباظ في رسالة من مكة)

- ١ -

نود أن نتطرق إلى موضوع العنصرية؛ لأن هذا موضوع يتلهف المسلمون شوقًا إلى تناوله لما يثيره عندهم من غضب وشجون، ولكي تعرف السبب فما عليك إلا أن تستقل طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا الألمانية في طريقها من إستنبول إلى فرانكفورت، وستستمع بطبيعة الحال من مكبرات الصوت إلى من يعلن عن وجود مراجعة لجوازات السفر قبل الوصول والهبوط من الطائرة،أي أن هذه المراجعة تتم في الطائرة. وإنك لترى بعينيك أن حاملي جوازات السفر الألمانية وجميع الركاب الذين لا يدل مظهرهم الخارجي على كونهم عربًا أو أتراكًا يشار إليهم ليمروا بسلام. يطلق موظفو الأمن الأمريكيون على هذه العملية Passenger Profiling أي تحديد هوية الراكب من خلال وجهه، وبالتالي معاملته بما تستحق هويته هذه؛ لأنه يمكن أن يحدث لك ما حدث لي في مطار شيكاجو، حيث فاتتني الطائرة وأقلعت بدوني؛ لأنني كنت مضطراً للوقوف في أثناء مراجعة جوازات السفر خلف أناس ذوي مظهر عربي، أو لهم لحية، أو يرتدون غطاء الرأس.

ولم تكن هناك ضرورة لإعلان عام ١٩٩٦ «عامًا أوروبياً ضد العنصرية»، لكي يتنبه الناس ويتذكروا أن العنصرية في صورتها الشوفينية ـ مثلاً ـ قد عادت إلى الظهور في العالم من جديد.

لقد أعلن هذا البلاء الذي عرفه القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن عودته بقوة وشراسة أكثر. والنصيب الأعظم في العالم الإسلامي يذوقه البوسنيون والأكراد والفلسطينون والشيشانيون ومواطنو كوسوفا وكشمير.

لقد تم حُسبان اختفاء العنصرية نتيجة لعقلانية الحداثة، والتي لا تجتمع معها العنصرية، أمراً مفروغًا منه، وواحداً من الوعود الكثيرة التي لم تف بها الحداثة.

فما نراه اليوم من تفرقة ذات تسميات مختلفة، مثل القومية والنازية وغيرها ما هي إلا تقسيمات على لحن بدأ منذ عام ١٤٩٢ متمثلاً في عنصرية دينية إثنية منظمة ضد اليهود والمسلمين. وهذه العنصرية ستصبح أحد مصادر شقائنا، وأحد الأخطار المهددة لنا في القرن الحادي والعشرين، على الأقل في صورة أساطير ذات مركزية أوروبية وتفرقة على مستوى العالم بين الحضارة الغربية والبرابرة الآخرين(Babaric Others) (ضياء الدين ساردار).

وهذا التطور لا يعدو إلى الدهشة إذا ما كان الإنسان واعيًا للعاملين المؤثرين في هذا الصدد: تؤثر انتماءات الإنسان العائلية وتوجهاته تأثيراً كبيراً من ناحية، ومن ناحية أخرى يتعرض الشعور القومي في الأزمنة

المختلفة لتغيرات تتخذ أشكالاً مختلفة في التعبير. فالشعور الوطني (الذي لم يصل إلى حد التعصب القومي البغيض) في آخر الأمر ليس إلا فكرة الانتماء العائلي ممتدًا إلى القبيلة.

وهذا الشعور سلوك طبيعي، لكنه يخدم عملية تأمين الفرد والحيوان. وتظهر الأمة نفسها في صورة العائلة الممتدة أو العائلة الكبيرة. والولاء للرابطة التي تتيح لي التعايش الاجتماعي وتنمي حياتي وتؤمن سبل معيشتي لهو فضيلة تحترم بلا شك.

والوجه الآخر لنفس هذه العملة مقبول ومعروف تمامًا، وهو أن الخوف والرعب من الغريب ـ الذي لم نعرفه أو نتعرف عليه بعد ـ هو في جوهره رد فعل طبيعي، بل ضروري. ويقول القرآن مشجعًا الإنسان لكي يتغلب على هذا الخوف في سورة الروم الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (*). ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (**).

يعرض القرآن معترفًا بهذه الحقيقة صلة الدم والنسب التي تنتج عن الانتساب أو الزواج كقيمة تستحق الحماية كما جاء في الآية ٥٤ من سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾. وكذلك سورة النساء الآية: ١: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

(*) آية (٢٢) من سورة الروم.

(**) آية (١٣) من سورة الحجرات.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾. وهذا أيضًا بين الإخوة والأخوات الذين يؤلفون مجموعة دينية وجماعة إيمانية إسلامية، (كما ورد في الآيتين ٧٤ ، ٧٥ من سورة الأنفال (*) والآية ٦ من سورة الأحزاب) (**).

والقرآن يقر أن أفراد العائلة قريبون بعضهم من بعض بصلات القربى وبما يتعلق بحقوق الميراث وكذلك في بعض النواحي الأخرى؛ لذلك أمكن لداريابادي مفسر القرآن أن يقول: إن علاقة القربى تُعَدّ أهم مؤسسة اجتماعية في الإسلام.

ولكن كل جماعة متماسكة «in groupe» كما يطلق عليها علماء الاجتماع تخلق « out groupe» مجموعة من الخارج لهذه المجموعة، هذا التحديد ضد الآخر الذي يمكن أن يؤدي إلى استبعاد الآخر. وهناك معايير تصلح لهذا مثل مكان السكن، والطبقة الاجتماعية، والخبرة التاريخية، والديانة، والجنس، واللغة (يكفي اختلاف اللهجة) وكذلك لون العينين، والشعر والبشرة. وكل منا عضو في جماعات متماسكة عديدة، ونستطيع أن نلحظ هذا إذا ما شاهد المرء منا مباراة كرة قدم وانحاز

(*) يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤، ٧٥].

(**) يقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦].

لفريق دون آخر. هذا السلوك البسيط والطبيعي من الممكن أن يتطور ليأخذ أشكالاً لمذابح يعجز اللسان عن وصفها، بل ويخرس بسبب وقوعها لسان أي إنسان، مثل «التطهير العرقي» الذي تعرض له المسلمون في كل من البوسنة والهرسك وكوسوفا. هذه الفظائع تشابه الأهوال والمطاردات التي لاقاها المسلمون واليهود على أيدي المسيحيين في القرن السادس عشر.

لقد فاقت أعداد اللاجئين نتيجة أسباب دينية عرقية في النصف الثاني من القرن العشرين، أي أعداد أخرى مسجلة في التاريخ.

قد تسمَّى القرن العشرون بحق: قرن اللاجئين والمشردين «displaced persons».

ألا يجرنا كل هذا ـ من منطلق المسؤولية الأخلاقية ـ إلى الحديث عن إبادة الهنود الحمر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأحوال العبيد من الزنوج في الولايات المتحدة وصولاً إلى الحرب الأهلية هناك؟

إن مجرد ترديد مظاهر العنصرية، هو ضرب من ضروب الاستسهال وذكر حوادث معروفة، ولكنها تكتسب أهمية إذا كان ذكرها سيؤدي بنا إلى هذه النقطة: هناك عنصر واحد فقط قادر على تحييد جميع مصادر التعصب والعنصرية، ألا وهو الدين.

كمبدأ عام، أظن أن كل العقائد السماوية الحقة قادرة على التغلب على الصراعات الإثنية، حتى وإن كان التاريخ يثبت عدم قدرة المسيحية على ذلك، وكذلك لم يفلح الفكر الشيوعي العالمي المعادي للإمبريالية في تحقيق هذا.

ولذلك فمن المهم أن نذكر أن الإسلام قادر فعلاً ـ وأنه كان دائماً قادراً ـ على تهميش العنصرية، بل وإزاحتها تمامًا. لقد تحقق هذا في بدايات الإسلام عندما عرض بعض نفر من أهل يثرب (المدينة فيما بعد) على الرسول الهجرة إلى يثرب، وعرضوا عليه الحماية فيما عرف ببيعتي العقبة الأولى والثانية عامي ٦٢١ و ٦٢٢. ولم يعرض عليه أهل يثرب مجرد الملجأ، ولكن الحماية والأخوة وانضمام المسلمين تحت قيادته السياسية في مدينتهم التي تضم سكاناً من العرب واليهود[١]، متغاضين بذلك عن الانتماء القبلي، مجتمعين فقط على الإيمان المشترك بدين واحد[٢].

ولقد بدأ بناء أول كيان جماعي سياسي في الإسلام بحادثتي بيعة العقبة؛ لأن بعد هجرة الرسول إلى يثرب، قام بها أول كيان سياسي يضم أناساً يجمعهم دين واحد، متناسين جميع العناصر الأخرى التي تشكل انتماءات الإنسان للجماعة، من انتماء عشائري وقبلي وعائلي ورابطة الدم. ولقد ذكر القرآن الرابطة التي ربطت المهاجرين بالأنصار وسماهم أولياء بعض. كما ذكر قرب الرسول من المؤمنين على أساس الإيمان المشترك. فورد في سورة الأنفال الآية ٧٢ عن علاقة المهاجرين بالأنصار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...﴾ أما عن علاقة النبي بالمؤمنين، فتحدثنا سورة الأحزاب الآية ٦ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾.

(١) تجد شرحًا وافيًا للأحداث التاريخية لبيعتي العقبة عند Charles Le Gai Eaton ص: ٢٠٩ ـ ٢١١ .
(٢) لم تكن هناك أهمية لكون أم محمد أصلاً من يثرب.

وجاء في الحديث الصحيح: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(*).

ولقد تخطى القرآن في وصفه صلة الإيمان وقوتها إلى أنه وضعها قبل الصلة العائلية، حيث ورد فيه في سورة التغابن الآية ١٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويؤكد القرآن أن الأزواج والبنين لا ينفعون المرء يوم القيامة وأنه لن ينفعه سوى عمله وإيمانه، كما تقول الآية ٣ من سورة الممتحنة: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (**).

ولذلك يُعَدُّ اختيار أفضل الناس وتحديد أفضليتهم هذه على أساس التقوى سلوكًا إسلامياً ومثالاً يحتذى، فالتقوى يتضاءل أمامها النسب والحسب والغنى وغيرها؛ ولذلك اختير بلال العبد الأسود لأن يكون أول مؤذن في الإسلام، والعبد سلمان الفارسي أول وزير للمالية، ويكون لامرأة هي عائشة الكلمة العليا في قيادة جيش في موقعة الجمل عام ٦٥٦، في مواجهة علي بن أبي طالب.

ولقد سار أمراء المؤمنين على نهج اختيار الأتقى والأفضل دون النظر إلى انتماءات عرقية، حتى في عهد العثمانيين لم يكن معظم وزراء الدولة من الأتراك بل من الألبان، واليونانيين والكروات والشركس. ولم يكن

(*) البخارى (٥٠٩٠)، ومسلم (٥٣ / ١٤٦٦).

(**) وتقول الآيات (٣٤ ـ ٣٦) من سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾.

الانتماء العرقي يؤدي دوراً مهما في تولي مناصب حكم أو جيش، والمثال على ذلك صلاح الدين الكردي.

كما أن المتصوف ابن عربي القادم من الأندلس عاش وعمل مكرمًا في دمشق حيث مات. كما شهدت دمشق كذلك حياة الصوفي ورجل الدولة المناضل عبدالقادر الجزائري حيث توفي هو الآخر هناك.

لم يستطع لورانس العرب خلال الحرب العالمية الأولى أن يُذكي من نار القومية العربية إلا بسبب ظهور التعصب التركي للقومية الطورانية أولاً، التي عبر عنها شباب الأتراك الملتفون حول أنور باشا والذين لم يسلم من ظلمهم واضطهادهم غير الشعوب العثمانية.

ولذلك لا نستطيع أن نفهم مشكلة الأكراد اليوم إلا إذا فهمنا الرابطة الإسلامية التي حكمت هذه المنطقة حتى سقوط الدولة العثمانية. وبالنظر إلى كثير من الدول العربية والإسلامية القائمة اليوم، نستطيع أن نقول إن هذه الدول ـ وغالبيتها من صنع الاستعمار ـ لا تُعَدُّ دولاً قومية ذات أسس وطيدة. ونظرياً، ما كان لهذه الدول أن تكون أصلاً.

أجمل تعبير للمساواة وانعدام التفرقة بين أفراد الأمة تصادفه سنوياً أثناء الحج. إن وجود ملايين المسلمين في مكان واحد يجمعهم إحساس واحد بالمساواة والانتماء ووحدة الهدف، وقد أتوا من مختلف قارات العالم ليؤدوا في ظل ظروف قاسية شعائر دينهم، يصلون معًا ويدعون معًا ويعيشون ويتناقشون معًا، لهو تجربة فريدة من نوعها ذات طبيعة سامية، حتى إنها استطاعت برقيها وسموها وما تتضمنه من كل المعاني

والدلالات النبيلة أن تحرر مالكو لم إكس، هذا الإنسان النشط ذو البشرة السوداء، من عنصريته العنيفة البغيضة. فالحج هو أكثر الأعمال تأثيراً في نزع أي فكر عنصري، وأقدر الأفعال على مواجهة العنصرية.

لقد عاصرت مثل هذا الموقف، أي أن تتلاشى العنصرية بفضل الدين، ولكن ليس في مكة بل في سان فرانسيسكو عام ١٩٨٥م. فلقد عهدت إليَّ جماعة من المسلمين السود أن أؤمهم في الصلاة... أنا الوافد حديثًا ذو البشرة البيضاء، ولكن لم يكن ذلك يمثل أهمية، فقد اختاروني؛ لأنهم رأوا أنني أكثر منهم علماً.

وهذا الفكر هو الذي جعل في إمكانية المسلمين إصلاح العلاقات والنفوس المريضة في الجيتو، أي المناطق المغلقة على السود فقط، والتي تضج بالمشكلات مثل: المخدرات والعنف، وكذلك الوضع في جنوب إفريقية.

وهناك مثال رائع ماليزيا لتعايش الملايويين والصينيين والهنود بعضهم مع بعض في سلام، وكلٌّ محتفظ بلغته وملبسه وتقاليده وطعامه ودينه، كل هذا بفضل الإسلام الذي يحارب العنصرية.

يستطيع المسلمون أن يقولوا ويفخروا أنه بالرغم من رفضهم للصهيونية وللتوسع الإسرائيلي، فإن بلادهم لم تشهد على مرِّ التاريخ إلى يومنا هذا أي عداء للسامية.

ولا يعود هذا إلى أن العرب أنفسهم ساميون، ولكن لأن القرآن يطالب كل مسلم باحترام غيره من أصحاب ديانات التوحيد السماوية.

فالإسلام لا يرفض الإجبار بكافة صوره في مسائل الإيمان فقط: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولكنه كذلك يحمي ويضمن لجميع الديانات الأخرى وجودها وأمنها، كما ورد في الآية ٤٨ من سورة المائدة (*).

لقد وضحت في مقدمة حديثي أن جذور العنصرية تضرب بشدة في النفس البشرية، لدرجة أن الإسلام في واقع الأمر وبالممارسة (وليس النظرية) لم يستطع إبادتها تمامًا والقضاء عليها القضاء المبرم. والادعاء بعكس ذلك يعادل الادعاء بأن الإسلام تمكن من استئصال الشر كله من العالم.

فمنذ البداية، عند اختيار الخليفة الأول للمسلمين بعد وفاة الرسول عام ٦٣٢هـ، كان من الواضح أن المهاجرين يتوقعون أن يسلم الأنصار بأحقيتهم - أي المهاجرين - في أن يكون الخليفة منهم، ولقد كان، فتم اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول.

ثم تحول أمر الخلافة منذ الأمويين إلى بقاء الحكم ضمن طبقة من النبلاء القرشيين، وصار الأمر كذلك حين توارث الأمويون الخلافة. سبق قيام الخلافة الأموية نزاع طويل بين الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاءالراشيدين ومعاوية بن أبي سفيان الذي نازعه الخلافة. وكان وراء هذا الصراع أسباب ليست بالأسباب الفقهية، أو السياسية فقط،

(*) يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

ولكن الصراع كان شكلاً جديداً للصراع القبلي، فلقد امتد منذ ظهرت النبوة في بني هاشم - وغيرة بني أمية وكبيرها أبي سفيان - حتى الصراع الذي انتهى باغتيال الإمام علي، حيث لم يقبل بنو أمية أن يكون من بني هاشم الرسول والخليفة.

أما العباسيون الذين أزاحوا الأمويين عن الخلافة وأقاموا خلافتهم، فلم يختلفوا كثيراً عن الأمويين في أمر من يتولى الخلافة؛ لأنهم وإن بدت حركتهم حركة دينية ثورية، إلا أنهم تمسكوا بأن يكون الخليفة من قريش، وعلى وجه التحديد من بني العباس. ولقد امتد هذا التقليد حتى قيام سليم الأول باحتلال القاهرة وإن ادعى لنفسه لقب الخليفة بالإضافة إلى احتفاظه بلقب السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن أشير على هامش هذه المداخلة، أن الفكر الشيعي يهدف آخر الأمر إلى نظام وراثي؛ لأنهم يظنون أن الشخص الذي يأتي على رأس المؤمنين ومن له حق قيادتهم لابد وأن يكون من نسل محمد من خلال توارث أبناء فاطمة - ابنة محمد - وعلي لمكانة خلافة المسلمين وقيادتهم.

ولقد حدث في واقع الأمر في تاريخ الإسلام أن تعرضت مسألة مساواة البشر لتساؤلات عديدة، خاصة بعد التوسعات الهائلة التى شهدتها الدولة الإسلامية، ودخول العديد من غير العرب في دين الإسلام، ولقد سمي هؤلاء بالموالي. ولقد عانى هؤلاء كثيراً من كونهم مسلمين درجة ثانية، أي درجة أدنى من المسلمين العرب، ولقد ظهر هذا

في تقسيم الغنائم وتحديد دفع الضرائب. ولقد ثار الموالي على هذا الظلم الواقع عليهم والذي يتعارض تمامًا مع تعاليم الإسلام، وقاموا في القرنين التاسع والعاشر بحركات تمرد معادية للعرب عرفت بالشعوبية(٣).

هذه الحركات لم تمت كلياً بين المسلمين الذين لم يقبلوا أن يتميز العرب عن سائر المسلمين، أي أن تكون هناك تفرقة عرقية.

لقد استخدم ابن خلدون في مقدمته الشهيرة كلمة «عصبية»، ليعبر بها عن شعور شعوبي قوي بالانتماء، هذا الشعور الذي يجمع حوله الكثير من المجموعات المختلفة في العالم الإسلامي، وكان رأيه هذا نتاج ملاحظات موضوعية واقعية كثيرة.

من يستطيع أن ينكر أن العرقية أدت دوراً مهماً في تجارة العثمانيين للعبيد مع فينسيا، وبخاصة تصديرهم إلى أمريكا؟ إن هذا التاريخ لا يزال يلقي بظلاله على العلاقات بين بعض الدول الإسلامية مثل موريتانيا والسنغال.

وأسوق هنا مثالاً حاضراً معاصراً لنا جميعاً، وهو حركة طالبان الأفغانية. تلك المجموعة تستمد تعاليمها من شاه ولي الله دهلوي (١٧٠٣ ـ ١٧٦٢) في الهند ومدرسة يوبانديDeobandi الهندية المتشددة. لا أنكر أنهم يمثلون ظاهرة دينية باتباعهم أسلوب الحياة العسكرية الريفية التي تتشابه مع حياة الرهبنة. لقد انطلقوا بدوافع أخلاقية من المدارس

(٣) تعريف عقدHans Webr ص ٦٥٧ .

الواقعة جنوباً حول كاندهار متجهين إلى كابول، كما فعل المرابطون البربر في القرن الثاني عشر عندما انطلقوا من جبال أطلس متجهين إلى مراكش.

لكن من ينكر أن هذه المواجهات المعاصرة ليست مواجهات دينية فقط بين حركة طالبان المتشددة ورباني وحكمتيار، يقر بأنها مواجهات قبلية بين القوى الأوزبكية والخدشيفية والباتينية[٤]؟

ولا نستطيع أن ندعي بطبيعة الحال عدم وجود مشكلات طبقية بين السكان الأصليين لشبه الجزيرة العربية في المنطقة الواقعة بين الخليج والبحر الأحمر وبين العاملين في هذه البلاد من الجنسيات المختلفة. ولكن هذا ليس بالشيء الجديد؛ لأن Carsten Niebuhr لم يستطع في القرن الثامن عشر أن يتجاهل في أثناء رحلاته في الحجاز واليمن وجود تفرقة بين السكان الأصليين والعمالة الوافدة[٥].

وكثيراً ما تستمع لشكوى مسلمين أوروبيين وأمريكيين حديثي الإسلام من عدم الثقة التى يتعامل بها المسلمون بالميلاد معهم، سواء كان هذا داخل الوطن العربي أو خارجه، ولكن هذا لسلوك يرجع لتخوفهم من عدم إلمام المسلمين الجدد بالعربية، وبالتالي ألا يكونوا على دراية وافية بالإسلام، وليس تعبيراً عن العنصرية.

---

(٤) عن طالبان، انظر الملحق الذي يحمل عنوان «أفغانستان» لتقرير عدد يناير/ فبراير ١٩٩٧ Muslim Politics Report Nr. M الصادر عن مجلس العلاقات الخارجية بمدينة نيويورك.Council on Foreign Relations in New Youk City

(٥) Niebuhr ـ نيبور: وصف الرحلات إلى جزيرة العرب وبعض البلاد المجاورة. مكتبة مانيس Ma-nesse زيورخ ١٩٩٢ ص ٣١٨: لا يسمح لكثير من الهنود باصطحاب زوجاتهم معهم إلى اليمن.

ومن الجدير بالذكر أنه لم يسلم من هذا الشك محمد أسد نفسه (بسبب جذوره الأوروبية ـ اليهودية) وهو علامة في اللغة العربية ولكنه كان مضطراً برغم إنجازاته العلمية في سبيل خدمة الإسلام، للكفاح الشاق حتى يحصل على الاعتراف به.

فقُدِّر على بعض المسلمين الغربيين أن يكونوا كالموالي في عهود الإسلام الأولى.

ومن هذا العرض نرى أن العنصرية تحاول دائماً التسلل من الأبواب الخلفية، خاصة إذا كان الرفض لها قويّا في الواجهة.

لذلك لا يصح للمسلمين أن يركنوا إلى أن دينهم يحرِّم بل يجرم العنصرية، ولا أن يعتمدوا على الكثير من الممارسات الرافضة لهذه العنصرية في تاريخهم، بل عليهم العمل على إزالة الواقع منها، ومنع حدوثه وفقًا لما يدعوهم إليه دينهم.

ـ ٢ ـ

بالنظر إلى الطبيعة البشرية والتي تميل إلى الضعف لم يكن من الممكن تفادي تلطيخ ثوب العالم الإسلامي ببعض البقع العصرية. ولكن هذا العالم الإسلامي يوفر ـ من منطلق النظرية وبنسبة كبيرة من خلال الممارسة ـ صورة ممكنة للحياة الرافضة للعنصرية. وهذه رسالة موجهة إلى كاتالونيا، إقليم الباسك، والبلقان، ولكن ليس لهؤلاء فقط، ولكنه نموذج يصلح لجماعة من الناس في العالم أجمع، لجماعة يحكم التعامل فيما بينها ومع سواها عنصر واحد فقط هو الإيمان بالله والتسليم له،

وأن نتغاضى ونترفع عن كل العناصر الأخرى. وإنني هنا أردد قول Jef-frey Lang المسلم الأمريكي الشهير: «إن الإسلام وإن لم يستطع استئصال شأفة الأحكام المسبقة ذات الطبيعة العنصرية، إلا أنه لا يقرها. وعندما يمارس المسلمون العنصرية أو يقرونها، فإنهم يعلمون علم اليقين أنهم يرتكبون إثمًا كبيراً، ويخرجون بذلك عن تعاليم دينهم. إنني أعتقد أن النجاح لم يحالف أيًا من الديانات العالمية الكبرى في حربها ضد الأحكام العنصرية المسبقة مثلما حالف الإسلام»(٦).

ومن يتشكك في ذلك، فليلق نظرة على أي مركز إسلامي يختاره في ألمانيا، حيث يتعامل التركي مع الشمال إفريقي مع الفلسطيني مع السوري والمصري والبوسني والألباني والألماني بود وحرارة، ويتناسى كل منهم اختلاف جنسيته عن الآخر.

ولذلك، فإنني لا أرى من قبيل المبالغة أن أنهي حديثي هذا بأن أقر أن الإسلام الحق الذي يفهم على صحته ويمارس في الحياة بشكل سليم (هذا الإسلام الذي يحمله المسلم في قرارة نفسه) إنما يمثل النقيض للشوفونية والعنصرية.

۞ ۞ ۞

(٦) Lang ١٩٩٧ ص ١٥٤ .